المحاضرة السادسة :

ظاهرة الغموض في الشعر العربي المعاصر

تمهيد :

يعد الغموض ظاهرة فنية ميزت الشعر بعد النصف الأول من القرن العشرين عندما بدأ التجديد ، فأصبح " الشعر الجديد يمثل اتجاها جماليا يختلف عن اتجاه الشعر القديم ، بل ربما وقف منه موقف النقيض " ، فكان الشاعـر القديم ينطلق من معان واضحة وأفكار جاهزة ويقوم بصياغتها ، أما الشاعر العربي الحديث فيحاول أن يخلق معنى جديد لعالمه الجديد ، لذلك لم تعد قصيدته تقدم أفكارا ومعاني شأن القصيدة القديمـة ، وإنما أصبحت تقدم فضاء من الأخيلة والصور ، ولم يعـد الشاعـر ينطلـق من موقف عقلي أو فكري واضـح ، إنما أخذ ينطلق من مناخ انفعالي أو "رؤيا".

فالعالم الجديد الذي يعيش فيه الشاعر اختلطت قيمه وتضاربت ، وأطل على الإنسانية شبح القلق وعدم الاستقرار فلا يمكن أن نجد فيه قيما ثابتة يعتمد عليها الشاعر ، لذلك آثر الغموض ليعكس به انقلابا في التجربة الشعرية.

فالغموض في الشعر يرتبط بالانتقال من طرق التعبير السائدة إلى طرق أخرى مغايرة ، وهذا الانتقال قد يحدث في أي عصر وفي أي أمة ، لذلك فالغموض ليس ظاهرة جديدة في الشعر العربي إنما نجده حتى في الشعر القديم ، فأبو تمام حين أحدث تجديدا في الشعر العربي في العصر العباسي عُد غامضا، غير أن ذلك الغموض خاص بشعره وشعر قلة من معاصريه ، لذلك لا نعده ظاهرة كما في الشعر المعاصر.

موقف النقاد والشعراء المعاصرين من ظاهرة الغموض :

يرى عز الدين اسماعيل أن الغموض أساسي في لغة الشعـر لأنه يرتبط بالإيحاء ، ويتحقق فيها عن طريق المجاز، يقول: " كثرة التفصيلات ، لا تترك عملا للإيحاء الذي تتمتع به لغة الشعر والذي يعتمد على الصور الفنية كالاستعارة وغيرها، ولذا فإن التعبير

المباشر ليس تعبيرا شعريا " ، وهو يعده سمة جمالية في الشعر الجديد يقول: " إن الشعر الجديـد يتسم في معظمه بخاصة في أروع نماذجه بالغموض ".

ويبين أدونيس موقفه من ظاهرة الغموض في الشعر مشيرا إلى طائفة من الشعراء اتخذته سبيلا لإخفاء عجزها عن الإبداع شأنها شأن طائفة أخرى اتخذت الوضوح سبيلا لإخفاء عجزها هي الأخرى ، فالذي يعنيه هو الإبداع بحد ذاته ، الذي يكون فيه الغموض فنيا يصل الشاعر به إلى الأعماق ومن يحارب هذا الغموض في الشعر فهو يحارب " الأعماق من أجل أن يبقى على السطح ، ويحارب البحر من أجل أن يبقى على الساقية ، ويحارب الغابة والرّعد والمطر من أجل أن يبقى في الصحراء ".

وهو الغموض الذي ميز تجربة أدونيس الشعرية ، فهو يقر بذلك يقول : " ولئن كان الوضوح طبيعيا في الشعر الوصفي أو القصصي أو العاطفي الخالص لأنه يهدف إلى التعبير عن فكرة محددة أو وضع محدد ، فإن هذا الهدف لا مكان له في تجربتي، فأنا لا أنطلق من فكرة واضحة محددة ، بل من حالة لا أعرفها أنا نفسي معرفة دقيقة، ذلك أنني لا أخضع في تجربتي للموضوع أو الفكرة أو الأيديولوجيا أو العقل أو المنطق ، إن حدسي كرؤيا وفعالية وحركة هو الذي يوجهني ويأخذ بيدي " ، فانطلاقه من معطيات غير ثابتة هو ما جعل شعره يبتعد عن الوضوح ، ويظهر هذا من خلال اختياره لعناوين الكثير من قصائده : الحلم– أبعاد غامضة– أسرار– رؤيا– غابة السحر– نبوءة ... إلخ، ويتعدى الغموض عناوين هذه القصائد وغيرها إلى المتن، إلى درجة كبيرة يصعب معها حتى تأويلها ، يقول في قصيدة **البرق** :

أَوْمَأَ لِي بَرْقٌ بَكَى و نامْ
في غابةِ الظُّنُونْ
يَجهلُ أنِّي سَيِّدُ الظلامْ ؛
أومَأَ لي بَرْقٌ بكى ونامْ
نَامَ على يديْ

مُنْذُ رأى عَينيْ .

فأدونيس حتما يريد بالبرق مدلولا غير مدلوله ، لكنه غامض لأنه لم يترك ما يدل عليه كغيره من الدوال الأخرى : غابة الظنون ، سيد الظلام ...

يعلق إبراهيم السامرائي على الغموض في قصيدة **زهرة الكيمياء** التي يقول فيها أدونيس:

يَنْبغِي أن أُسَافرَ في جنةِ الرَّماد
بَيْنَ أشْجَارِها الخفيَّهْ
في الرَّمَادِ الخَواتِيمُ والمَاسُ والجزّةُ الذهبيَهْ .

يَنْبغي أن أُسافرَ في الجوعِ ، في الوَرْدِ ، نحوَ الحصادْ
يَنْبغي أن أسافرَ، أن أَستريحْ
تَحْتَ قوسِ الشِّفاهِ اليتيمهْ ،
في الشِّفَاهِ اليتيمة في ظِلِّها الجَرِيحْ
زهرة الكيمياء القديمهْ.

بقوله : " هل من يدلني على طريق أصل فيه إلى إدراك هذه الكلمات التي بدت لي كأنها ضلت الطريق إلى حقائقها ؟ ، فما المراد من (هذه الزهرة الكيمياوية) ؟ ، وأين تكون في سفر المؤلف في (العدم) أي (جنة الرماد) ؟ ، وكأن الرّماد ليس العدم ، بل هو الخواتيم والماس والجزة الذهبية ، كيف تكون هذه الأجزاء التي يأبى أحدها الآخر مجموعة في الرماد ؟ ، وكان على المؤلف أن يدل على الجزة التي لا يعرفها جمهرة قرائـــه ".

إن التشكيل اللغوي المتميز عند شعراء الحداثة القائم على التجاوز بخرق قواعد اللغة وتحرير الكلمات لتقييم علاقات جديدة من جهة وتجاوز القوانين والنظم المختلفة من جهة ثانية ، جعله مكثفا بالغموض نتيجة الهروب إلى اللاوعي والحلم والإغراق في الفلسفة وهو ما يقره يوسف الخال ، يقـول : " أسهمت إلى حد كبير في تحريـر الشعـر من أسر التاريخ وقانون الجماعة ، ومن نمطيـــة النظرة الدينيـة الفقهيـة ، أي من سلطة المعجم

والماضي مقدسا كان أو تاريخيا ، كما أسهمت إسهاما واضحا في دفعه إلى اتجاه التفكير الفلسفي والحدس وتحريض اللاوعي وتراسل الملكات " ، لذلك فهو يدعو الشعـــراء إلى رفض الخضـــوع إلى الماضي وتقاليده ، والتحرر من كـــل سلطة موروثة أو شكل مسبق[1] ، ويقطع على نفسه وعدا بالخلق الشعري في قصيدته إلى عزرا باوند ، يقول :

لك الوعد : إنا

سنبني بدمع الجبين

عوالم للشعر من عبقر

مفاتيحن